

تمظهرات الديستوبيا في الرواية العراقية الحديثة (رواية "يا مريم" للروائي سنان أنطون أنموذجاً) نوع المقالة: أصيلة

جاسم نكارش^١، صادق إبراهيمي كاوري^٢ (الكاتب المسئول)، سهاد جادري^٣

١. طالب دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، فرع آبادان، جامعة آزاد الإسلامية، آبادان، إيران.
٢. أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، فرع آبادان، جامعة آزاد الإسلامية، آبادان، إيران.
٣. أستاذة مساعدة، قسم اللغة العربية وآدابها، فرع آبادان، جامعة آزاد الإسلامية، آبادان، إيران.

تاريخ استلام البحث: ١٣٩٩/١٠/١٦ تاريخ قبول البحث: ١٤٠٠/٠٧/٢٠

الملخص

المدينة الفاسدة أو الديستوبيا هي عبارة عن تنخي الإنسان عن مبادئ الأخلاق وضياعه واندثاره في التعصبات والردائل، وارتبطت معاني هذه المدينة بالأدب والسياسة والفلسفة البشرية وقد شرقت شمسها وبانت معالمها بوضوح من بدايات عصر النهضة الأوروبية حينما سيطر الإنسان المعاصر على الطبيعة واحتلق قوانين اجتماعية وسياسية للسلطة. ولا شك أنّ هناك علاقات بين هذه التعاريف والمجتمع العربي عامة والعراقي خاصة. ارتبطت الرواية العراقية الحديثة ارتباطاً وثيقاً بالأدب الديستوبي، وما يحدث من تحولات في الواقع العراقي، واندثار منظومة من القيم، واستفحال لوجوه الفساد، وسلطة الخوف من الحاضر والآتي؛ سنان أنطون من الروائيين العراقيين الذين التفتوا إلى هذه المدينة في رواياتهم وقد ظهرت بصورتها الشاملة. هذا البحث وفق المنهج التوصيفي-التحليلي يهدف إلى الكشف عن سمات الديستوبيا وإيضاح مدلولاتها ودوالها التي تمّ استدعاؤها في رواية "يا مريم" للروائي العراقي سنان أنطون، وكما ظهرت لنا النتائج بأنّ الروائي بنى هذه المدينة حسب التطرف الإيديولوجي من البعث حتى المتطرفين الانتحاريين، ثمّ ركز على الموت غير الطبيعي سيما في الحروب والإعدامات، والاعتقالات، وأيضاً عبّر عن دمار البيعة والتراث العراقي حيث دمرتها الحرب وكثرتها، وأهمّ موضوع تطرّق إليه الروائي هي الطائفية المتشدّدة في العراق والمجازر التي حصلت من الطائفية.

الكلمات الرئيسية: الرواية العراقية، الديستوبيا، سنان أنطون، رواية «يا مريم».

١. المقدمة

المجتمع العراقي في الآونة الأخيرة من المجتمعات التي رأت الولايات من الحصار، والحروب، وقلة المواد الغذائية، والأدوية، وسيطرة الطغاة، واحتلال العراق على أيدي أمريكية وتعتت في استقرار البلاد بإظهار فتن طائفية، حتى بات الفرد العراقي يفرّ من مدينة لمدينة ومن وطن لوطن للبحث عن الأمان، وهذا الأمر مما جلب انتباه ادباء العراق لكي يصفون هذا المجتمع الذي بات على حافة انهيار. لا ننسى بأنّ الرواية هي صورة تعكس واقع المجتمع بالآلامه، وأوجاعه وحتى الأمل الذي يبحث عنه الشعب، وبعد سقوط بغداد وانفكاك السلطة البعثية، أصبحت الأجواء ملائمة لنقل الواقع المعاش.

سنان أنطون (١٩٦٧م) روائي عراقي حاول في رواياته نقل صورة واقعية من الشعب العراقي وقد ركّز على الطوائف الأكثر تضرراً في عراق بعد السقوط سيّما في رواية "وحدها شجرة الرمان" ركّز على عائلة شيعية، وفي رواية "يا مريم" على عائلة مسيحية لبيّن للقارئ الأمور التي يعاني منها الفرد العراقي. وبما أنّ الرواية تعكس المجتمع والأحداث الحقيقية التي تجري من خير وشر، فمن خلال هذا النص الأدبي يستطيع القارئ والمتلقّي والناقد معرفة مجتمع الروائي من خلال تحليل النص وفق المنهج الصحيح لهذا نرتّب الإشكالية وفق التالي: معرفة المجتمع العراقي بعد الغزو الأمريكي يصبح مهماً لأنّ العراق جارة مهمة لإيران، ثمّ لم تدرس الديستوبية بشكل منهجي في روايات سنان أنطون وبإسهاب.

١-١. أهمية البحث

تصوير المجتمع العراقي والأحداث التي جلبتها الحرب والمعاناة التي عاشها الشعب، أثرت على نفسية الأدباء وانعكست في نصوصهم وأكثر من عكس هذه المعاناة هم أكثرهم الذين عاشوا هذه الحقبة كسنان أنطون وباقي الأدباء. إذن من الأدباء الذين نقلوا المجتمع العراقي أثناء حدوثه في الفوضى العارمة ونهب ثرواته، ودمار البنية التحتية؛ هو سنان أنطون. عالج هذا الروائي قضية الديستوبيا منذ تولية حزب البعث الاشتراكي على العراق، حتى سقوطه واحتلال العراق على يد القوّات الأمريكية، ثمّ ظهور الممجيّة والتطرّف الأيديولوجي، وحلول الدمار، والرعب، والحروب الطائفية من جديد؛ ثمّ بما أنّ العراق جارة لإيران لذا يجب علينا أن نعرف

تاريخها وما حلّ بها جرّاء هذه الأحداث الشنعاء، ولا ننسى الفوضى العارمة في المجتمعات الإسلامية والدسائس التي يدسّها أعداء الإسلام تحتاج إلى دراسة وتدقيق، فظهور الجماعات المتطرفة، والقضايا الطائفية لا تأتي من الفراغ، بل من خطة سابقة، يجب قراءتها وتحليلها من خلال النصوص الأدبية.

١-٢. أسئلة البحث

- إنّنا في هذه الدراسة نسعي إلى الإجابة عن الأسئلة التالية:
- ما هي مظاهر الديستوبيا في رواية "يا مريم" لسنان أنطون؟
 - كيف تجلّت مظاهر الديستوبيا في الرواية؟
 - ما الأسباب الأهم التي اعتمد عليها الروائي لتوصيف الديستوبيا ومقوّماتها في هذه الرواية؟

١-٣. خلفيّة البحث

قضية الديستوبيا في الرواية العربية في الآونة الأخيرة صارت مسألة مهمة لكي نبيّن ما يحتاجه الشعب العربي وكيف يصوّر المجتمع الذي يتأمله، ومن هذا المنطلق الرواية العراقية الأكثر جدلاً في هذا المجال، ولم نر دراسات حول روايات سنان أنطون تعالج القضية الديستوبية لهذا قررنا قراءة الديستوبية في روايات سنان أنطون. أمّا الخلفية التي وجدناها في هذا المجال على سبيل المثال فهي:

كريمة نوماس (٢٠١٤م)، كتبت دراسة بعنوان «التحليل السيميائي للبنية السردية في رواية "يا مريم" لسنان أنطون»، ونُشر في مجلة جامعة كربلاء العلمية، وقد اهتمت الكاتبة بالسيميائية ودلالات الحُزن، والتوترات للشارع العراقي، والتوترات القبلية والطائفية العراقية.

أحمد عبدالرزاق ناصر الحسني (٢٠١٥م)، نشر هذا العنوان «ثنائية اليوتوبيا-الديستوبيا في الرواية العراقية؛ دراسة سيميائية». درس هذه الظاهرة في رواية "هواء قليل" للروائي جنان

حاسم حلاوي، ورواية "نجمة البتاوين" للروائي شاکر الأنباري، ورواية "وحدها شجرة الرمان" للروائي سنان أنطون وذلك من خلال دراسة البنية الدلالية المتمثلة في استعمال المربع السيميائي الذي قدمته مدرسة باريس السيميائية لاسيما رائدها غريماس ونُشرَ هذا المقال في مجلة كلية الآداب بجامعة بغداد.

أحلام بن الشيخ (٢٠١٨م) نشرت «مشهديات الديستوبيا في رواية "جملكية آرابيا" لواسيني الأعرج»، في مجلة العلامة في العدد السادس. ركّزت الكاتبة على رواية "جملكية آرابيا" وهي رواية تعبّر عن ثورات الربيع العربي وما ترافق معها معطيات واقعية. اهتمت الكاتبة عن كشف الجدلية الفكرية عند الروائي والدوال التي استغلّها لنقل الواقع العربي المعاش.

فاطمه برجكاني (٢٠١٨م)، نشرت دراسة بعنوان «الديستوبيا (المدينة الفاسدة) في الرواية العربية المعاصرة؛ قراءة في رواية أورويل في الضاحية الجنوبية لفوزي ديبان» وقد عاجلت الفقر والفوضى والحياة الجنسية، والمعاناة اليومية للسكان الضاحية وفوضوية أمورهم من خلال الرواية وقد نُشرَ هذا المقال في مجلة إضاءات نقدية.

كتب نجدي عبدالستار نجدي (٢٠٢٠م)، مقالاً بعنوان «تشكّل الشخصية في الرواية الديستوبية» وقد نُشرت في المجلة العربية مداد. نرى الباحث يهتمّ بالشخصية أكثر ممّا يهتم بوصفها وظواهرها في المجتمع، وهذه فكرة حديثة مهمة في هذا المجال؛ بالواقع نقل لنا الباحث الشخصية التي اتصفت بصفاتٍ ربما تكون مخالفة عن الشخصية الطبيعية في الأعم الأغلب وهي التي تنقسم على حسب وظيفتها إلى الشخصية المتسلّطة والشخصية المتناقضة والشخصية اللامنتمية، وهذه الأشخاص التي تشكّلها الأبعاد كالأبعاد الخارجية، والداخلية، والاجتماعية، والفكرية، واعتمد على الروايات التالية: والسيد من حقل السبانخ، ويوتوبيا، وعطارد، وفقران أمي حصة.

وفي مجال الاستعمار هناك دراسة بعنوان «أثر الاستعمار على المجتمع الجزائري في رواية "غدا يوم جديد" لعبد الحميد بن هدوقة بناء على آراء فرانس فانون» بقلم قنبري وآخرين وقد نُشر البحث في مجلة الجمعية الإيرانية للغة العربية وآدابها، وركّز الباحثون على إظهار البقات التابعة للاستعمار، وإنشاء الكتل المحرومة اجتماعياً، والتغييرات في المؤسسات الاجتماعية.

أما ما يميّز بحثنا عن باقي البحوث فهي الدوال التي ابتناها الروائي لخلق مدينة فاسدة عبر حساب السرد الروائي لرواية "يا مريم" والكشف عن هذه الدوال وتحليلها وفق المنهج الاجتماعي، وحاولنا أن نستند بجمل الروائي أكثر ممّا نعتمد على التحليل والتأويل.

١-٤. تلخيص رواية "يا مريم"

في بادئ الأمر، نرى الرواية تخطو مسيرتها عن لسان «يوسف» حيث رفض الهجرة مع إخوته وأخواته إلى أوروبا أو أمريكا، وبقي في العراق متشبثاً بخيوط الأمل وذكريات جميلة وماض سعيد، يوسف ذلك العجوز الذي عاش ما يقارب قرناً في العراق، يعيش نوستالوجية كاملة حيث يحنّ إلى الماضي ويعيش في ذكرياته، وأما «مها جورج» طالبة في كلية الطب، شابة مسيحية غيرت الأحداث الطائفية مجراها، فبعد هروب أهلها إلى عينكاوة، بقيت مع زوجها في بغداد لتكمل دراستها في الطب. كان دوي الانفجار قد تسبّب بإجهاضها فأصابها الاكتئاب إثر سقط جنينها، فطلب منها يوسف أن يسكنها في بيته الفسيح الخالي من أفراد العائلة؛ رؤيتان متناقضتان لشخصيتين من عائلتين عراقيتين مسيحيتين تجمعهما ظروف البلد تحت سقف واحد في بغداد؛ الشخصية الأولى في الرواية هو يوسف العجوز الوحيد، في الثمانينيات من عمره، الذي كان يرفض اللجوء الاجتماعي إلى أوطان خارجية ويفضّل الموت في وطنه العراق كما حدث في نهاية الرواية، ومها تحاول الهروب من الوطن واللجوء إلى خارج العراق.

٢. مقدّمات الديستوبيا والشخصية في الروايات الديستوبية

الأدب والمجتمع والعلاقة الناتجة منهما تؤدّي إلى إنشاء فكرة الروائي وانعكاس المجتمع الذي يعيشه ومقومات الفكرة تؤدّي إلى خلق المجتمع الذي يرغب به أو ينفر منه فالديستوبيا «التي تقع في

الواجهة الأخرى لليوتوبيا، فإنها تهدف إلى النظر من زاوية مختلفة إلى علاقة الإنسان والمدينة، وعلاقة الإنسان والمجتمع. لذلك يبدو أنّ دراسة الروايات المعاصرة من وجهة نظر ديستوبية، تقع في إطار سوسولوجيا الأدب، وتتبع أهدافاً مماثلة لليوتوبيا» (برجگانی، ٢٠١٨: ١٣٢). وفيما يتعلّق بكلمة الديستوبيا، فهي المدينة الفاسدة التي ترزخ تحت الفقر والجوع والظلم. (الحسني، ٢٠١٥: ١٣٦).

فالرواية الناجحة هي التي تدرس علاقة الفرد بالمجتمع، وعلاقة المجتمع بالفرد وتأثير الأول على الآخر فالتشابه بين الرواية والمجتمع أكثر من باقي الأجناس الأدبية. فالرواية «حتى وإن حاولنا تقديم تعريف عنها بعيداً عن القيود إلا أنّها الشكل الأدبي الذي يتشابه أكثر من غيرها مع المجتمع وأفراده إذ إنّ الرواية الناجحة هي التي تدرس علاقة الفرد والمجتمع وهذا هو البعد الاجتماعي الغالب في أكثر الروايات الناجحة» (عسكري، ٢٠١٠: ٣٥).

لا يمكن تصوّر رواية من غير شخصيات مؤثرين على حبكة الرواية، حتى لو كانت الرواية من ضمن الواقعية السحرية، فيجب على الروائي اتيان بشخصيات قريبة للعالم الخارجي وبعبارة أخرى «فإنّ الرواية تجربة أدبية تصوّر مجموعة من الشخصيات بواسطة نثر الحياة وتترابط هذه الشخصيات فيما بينها لكي تخلق إطار عالم خيالي غير أنّ هذا العالم الخيالي يجب أن يكون مستمدّاً من الحياة الواقعية بمعنى أنّ حياة شخصيات الرواية يجب أن تكون ممكنة في عالم الواقع». (وادي، ١٩٩٦م: ١٥٧-١٥٨). إذن من خلال رواية "يا مريم" سنتعرّف على الديستوبية والأمور التي جلبت المجتمع نحو الدمار والتمرد والاحتلال.

٣. الأدب الديستوبي في رواية يا مريم

سنان أنطون الأديب الناجي من مجازر العراق يسرد الأحداث التي عاناها الشعب العراقي لسنوات؛ كان التبعض الطائفي والعراقي أهم الأسباب على زمن البعث وقد جلب الفقر، والجوع، والبطالة إلى الكثير من أبناء الشعب، وكلّما يعترض فردٌ من أفراد المجتمع العراقي كان نصيبه التعذيب، والسجن، والإعدام، وقد عاش الشعب في حالة قمع وغضب، وعندما جاءت العزّة بحجّة نجاة الشعب العراقي من يد الطاغية؛ عمّت الفوضى وهمّ أبناء الشعب لنهب ثروات العراق وتناسوا بأنّ كل الذي مُهّب كان في إطار الثروة التراثية الذي خلّدها الآباء منذ عهدٍ قديم، هذه الآلام التي عاشها الروائي وعانى منها، ظهرت في رواياته بصورة عامة وفي رواية

"يا مريم" بصورة خاصة، بملامح ديستوبيا، لهذا ومن خلال هذا المقال سنرصد الملامح الديستوبية في رواية "يا مريم".

٣-١. الفوضى والتمرد في رواية "يا مريم"

الشعوب كسلسلة يورثون أدوات الحضارة إلى الجيل الذي يليهم ويعتقد هيجل الفيلسوف الألماني أنّ المجتمعات في أوائل القرن التاسع عشر بالأفراد الذين «ينقلون شعلة الحضارة من واحد إلى الآخر، وفي رأي هيجل، أنه خلال هذه العملية تنمو الحضارات على ثلاث مراحل: ١- حكم الفرد. ٢- حكم طبقة من المجتمع. ٣- حكم كل الناس» (ب.ج. براندر، ٢٠١٦م: ١٣). ولكن ما أن يظهر طاغي حتى تنقطع هذه السلسلة وتعمّ الفوضى. بعد سلطة البعث على العراق تغيّرت مسميات القانون، وأصبح المنتمي للأعضاء هو في طليعة كل شيء، وبعد الاحتلال لم تبق مبادئ للغلبة على الفوضى لهذا يصف لنا زوج مها قصة الفوضى:

«يا قانون هذا عيني؟ همّهم كلهم مجرمين وحرامية. قيسّموها دولة الفافون، مو القانون»^١ (أنطون، ٢٠١٢: ٢٤).

بعد احتلال العراق عانى الشعب العراقي عدم وجود القانون، ويصف لنا سنان أنطون قانون الفوضى من خلال رواية يا مريم، فهذه الفوضى ونظريتها برزت في القرن الأخير فخلال القرن العشرين تطوّرت العلوم من خلال ثلاث نظريات علمية بحثية؛ فيرى زوج مها أنّ الأحداث داخل العراق أصبحت فوضوية ولا تبشّر بالخير ولا وجود لما يسمّى بالقانون إذ إنه وبصورة تحكّمية يصف القانون بكلمة الفافون. ثم يأتي دور "يوسف" وهو الشخص الذي يرى من الظلم الحكم على الكل من خلال الفوضى، ويرى هذه الأحداث مؤقتة ويجب أن تضحمل:

«لا كفّار ولا بطيخ. همّهم بس تستقر الأمور، الخير يرجع»^١ (أنطون، ٢٠١٢م: ٢٦).

١. أي قانون هذا تحدث عنه؟ أكثرهم مجرمين وسارقين، فاليسّتون دولتهم بالقانون بدل القانون.

"يوسف" يرى من بطن هذه الفوضى ستخرج المدنية والرقي وما يحتاجه الفرد العراقي هو الصبر والمثابرة واحترام القانون، ويتأمل اضمحلال الديستوبيا التي انبثقت من خلال هذه الفوضى العرمرمة. وهذا التفاؤل ربما منبعث من فلسفة هيجل والمجتمع الغربي لأن المجتمع الغربي بشر لأجيال عديدة وآمن بالتقدم التطوري البشري كمذهب بعيد عن الشك أو السؤال. وعلى رغم ذلك، فالإيمان بالتقدم الاجتماعي أبعد ما يكون عن العالمية، فقد اعتنق الناس من أزمنا وأماكن أخرى وجهات نظر مختلفة عن موكب البشرية خلال الزمن» (ب.ج. براندر، ٢٠١٦: ٢٧).

حاول الروائي من خلال شخصية "يوسف" خلق يوتوبيا ولو في المخيلة ويأمل أن تأتي على أرض الواقع ما إذا استقرّ العراق. أما الفوضى في رأيها فهو أن القتل والذبح والتهجير ممتدّ:

«شلون يرجع عمّو؟ بعد كل هذا القتل والذبح والتهجير؟» (أنطون، ٢٠١٢: ٢٦).

استخدم الروائي اللهجة الدارجة لكي يصريح بالفوضى بشكل عفوي ودقيق. "مها" تُعاني الخوف الشديد والأحداث التي جرت عليها وعلى عائلتها قد أرعبتها، لهذا ترى أنّ جميع العراقيين يبحثون عن قتل المسيحيين وترى قد ظهرت الديستوبيا في العراق ويتوجّب على كل مسيحي الخروج من العراق. ترى مهما أنّ الفوضى ليست هي التي يراها الشعب العراقي بعد الاحتلال؛ بل الفوضى كانت منذ زمن حزب البعث عندما كان أعضاء البعث لا يحترمون الأقليات حصيلة التبعية العرقي والقومي. فيظهر لنا من خلال هذا الحوار أنّ الفوضى بالنسبة لباقي الطوائف في العراق كانت ولا تزال، فالشعب كان يعاني من الطائفية والفوضى والتمرد. ومعاناة العراق وشعبه لم تنته ورغم المجاعة في العراق يحدث دماراً لإرهاب الشعب. والفوضى عدم الأمان تسبب إلى إغلاق الكنائس وعدم تأدية مناسك الدين:

«لن يكون القُدّاس في كنيسة الراهبات التي كانت بيتها الثاني والتي صلّت فيها صباح، لعقود طويلة، لأنها أغلقت أبوابها أمام المصلّين مؤخراً لأسباب أمنية» (المصدر نفسه: ١٣).

هذه الأسباب الأمنية التي يتحدّث بها الروائي حصيلة الفوضى والتمرد من قبل بعض المتطرفين، ويرى بطل الرواية أنّ الجيل الشباب لا يحترم الأهل، ولهذا عمّت الفوضى وعدم الاحترام لأنهم لا يأخذون بنصيحة الكبار. يعتقد يوسف أنّ الجيل الشباب يسخرون من آراء

١. الأمر لا علاقة به بكفرنا أو ديننا. دعي الأمور تستقر وسنرى ما يجري بعدها، ثم لا ننسى بأن الأوضاع حالياً أفضل من السنوات الماضية.

٢. كيف ترجع الأمور إلى مجراها يا عمي؟ اخبرني كيف؟ بعد كل هذا القتل والتهجير.

تمظهرات الديستوبيا في الرواية العراقية الحديثة (رواية "يا مريم" للروائي سنان أنطون أنموذجاً) العدد ٦١، شتاء ١٤٠٠

وعقائد الجيل الذي يسبقهم، وهذه حصيلة الفوضى الاجتماعية الحاصلة في العراق ثم يري أنّ من المضحك أن تُنسب كل هذه الفوضيات إلى الحكومات السابقة لأنّه لاحكومة في الوقت الحالي وهذه الفوضى مسببها هو الشعب:

«البعثيون مازالوا يسبّبون المشاكل حتّى وهم في غياب السجون.. قالت هي إنّ المسألة برمتها مهزلة وأنهم بدلاً من حل مشاكل الناس مشغولون بإعدام المسنين والأبرياء» (المصدر نفسه: ٢١-٢٣).

رغم أنّ حكم البعث انتهى؛ تظنّ مها ما يحصل في العراقي حصيلة حضور البعث أو حصيلة ما فعل البعث بالشعب من قمع وضغوطات ممّا أدّى إلى هذه الفوضى. ومها بطلّة الرواية في الفصل الثاني من رواية "يا مريم" ترى أنّ الفوضى هي برمتها تنبؤ من الأحكام الصادرة حديثاً لأنّ تركوا الشعب والمسائل الأمنية واهتمّوا بتعذيب وقتل من ينتمي إلى البعث قبل هذا. بعقيدة "مها" هناك مهام مهمّة بالنسبة للحكومة لكي تخرج الشعب من هذه الفوضى وبدل من إعدامات رموز الحزب المغبور، يجب على مساندة الشعب من الخروج من هذه الفوضى لأنّ الفوضى متتالية من رأس الهرم وهي الحكومة حتّى أسفلها حيث الشعب. وعندما أسقط نظام البعث الجنسية عن اليهود يروي لنا بطل الرواية الفوضى والتمرد بحق اليهود قائلاً:

«فالفرهود أيضاً كان مخيفاً لكنّه أصبح في خبر كان واستقرّت الأمور بعدها... أجاب نسيم: أبويا سجل أسامينا بالتسقيط وراح نروح لإسرائيل.. كانت الأشهر التي سبقت ذلك قد شهدت خمس هجمات على أماكن يرتادها اليهود أو يملكونها وعلى معبد مسعودة شمتوف لإرهابهم» (المصدر نفسه: ٤٣-٤٤).

كان نظام التبويض البعثي قد أجبر على العراقيين الذين ينتمون إلى مذاهب أخرى يخرجون من العراق، وكانت الأشهر الأخيرة من تلك السنة أي السنة التي طردت الطوائف الأخرى من العراق سيّما اليهود، والصابئة والمسيحيون وقد شهدت أبناء المسيح واليهود هجمات على أماكنهم، إذن إسقاط الجنسية، وإبعاد اليهود والمسيح من العراق هي بذرة الفوضى التي أصبحت شجرة زقوم في عصر الاحتلال.

٣-٢. معاناة الشعب في ظل الحصار والحروب

تعاني الشعوب من الحروب المتتالية والحصارات الفتاكة التي فتكت باقتصاد أوطانهم كالشعب العراقي الذي شهد الحصار، والحروب، ودمار البنى التحتية والتراث الطبيعي والإنساني. كانت معاناة الشعب حتى قبل احتلال أمريكا للعراق، بسبب قطع الكهرباء واتلاف جميع ما اشترته العائلات:

«عندما عدنا إلى البيت كان علينا تنظيف الثلاجة والمجمدة وإلقاء ماتلف من المأكولات فيهما بسبب انقطاع الكهرباء منذ اللحظة الأولى. كانت حنة ستلقي باللحم الذي كان في المجمدة في المزابل بسبب الصوم الكبير. لكنني قلت لها يوماً: حرام بابا. كل شيء مسدود وأكل ماكو. اطبخينو ناكلو أحسن^١»
(المصدر نفسه: ٣٠).

بما أنّ أسعار المأكولات مرتفعة بأسباب الحصار والحروب، تصبح معاناة الشعب أكثر، فالكهرباء وانقطاعها الدائم أصبحت مشكلة يعاني منها الشعب. إذن كانت الفوضى والمجاعة في زمن صدام لا تقل عن الحاضر، ولكل عصرٍ ويلات. فهذه معاناة أبناء الشعب العراقي من مجاعة وعدم الأمان. يرى سنان أنطون في بدايات روايته أنّه قد تمّ التمرد على كل شيء. كانت الأمور متدهورة، وكان الشعب العراقي يعيش حالة غليان، فلا يستطيع أحدٌ يتمسك على أعصابه وأن يكظم غيظه، هذا أمرٌ جديد يحصل فيما بين العوائل، وقد ركّز الروائي على هذا الأمر. ويرى الروائي أنّ الفوضى والتمرد بحق الشعب جعل الكثير من الشعب يعاني من عدم الأمن فيروي لنا بطل رواية يامرتم:

«الحاضر مفخخاً ومليئاً بالانفجارات والقتل والبشاعة؟ ربّما كان الماضي مثل حديقة البيت التي أحبها وأعتني بها كما لو كانت ابنتي... هي فتحت عينيها الخضراوين على الحروب والحصار وذقت طعم القحط والقتل والتشرد مبكراً» (المصدر نفسه: ١١).

الفوضى قد عمّت الحاضر وتلتها الانفجارات، والقتل، والإعدامات، لهذا يلجأ يوسف إلى الماضي ويراه كمدنية ليست بفاضلة ولكنها أفضل من الديستوبيا الحاصلة الآن. ثمّ يرى بطل الرواية أنّ الجيل الشباب قد فتح عينيه على الحروب والمعاناة. إذن في هذه المدينة الفاسدة؛ تُعاني أبناء الجيل الجديد من واقع مُر وغير مرغوب فيه، حيث فتحوا أعينهم على القحط، والقتل،

١. حرام هذا الأمر، كل المحلات مغلقة، اطبخيه لتأكله.

تمظهرات الديستوبيا في الرواية العراقية الحديثة (رواية "يا مريم" للروائي سنان أنطون أنموذجاً) العدد ٦١، شتاء ١٤٠٠

والتشرد، وهذه الأمور التي تقوي الفوضى وثبقيها ولا ننسى بأن الطغاة يتمنون الفوضى بين الشعب لينشغلوا بها. ثم الفقر معاناة الشعب العراقي الأكبر فيرى المفكرون أنّ الاقتصاد هو الذي يكون الطبقات ويحدّد العلاقات بعضها البعض، فهذا "لوسيان غولدمان" «في منهجه من المادية التاريخية فيجعل للوضع الاقتصادي أهمية كبيرة في الحياة الاجتماعية ويرى أنّ هذا الوضع وما يرتبط به هو الذي يكون الطبقات ويحدّد العلاقات بعضها البعض الآخر بحيث تكون هذه العلاقات ما يسميه الواقع الاجتماعي» (ناظمان، ٢٠١٩: ١٦٢). الفقر هو العوز والحاجة، والفقر ضدّ الغنى، والفقير هو المحتاج من الناس الذي لا يملك قوته وفي اليوتوبيا لا مكان للفقير؛ ولكن الديستوبيا أحد عناصرها هو الفقر؛ لهذا يتشكل الإطار الديستوبي:

ديستوبيا	يوتوبيا
الفقر	الغناء
الفقير	الغني
الحاجة	لا حاجة

أثناء الحصار كانت عوائل العراق والشعب برمّته كان يعاني من الفقر وكل من لديه أحد في خارج القطر كان ينتظر مساعدة منه، وكان حال يوسف وحنة كباقي أولئك المستأصلين الذين يحتاجون المساعدة:

«بعد سفره كانت الأخبار تنقطع لفترات طويلة. ولم يبادر ولا مرة لإرسال مساعدات كما كانت سليمة وأمل تعلان بين حين وآخر في التسعينيات، حتى بدون أن يطلب يوسف شيئاً منهما» (أنطون، ٢٠١٢: ٥١).

إذن الطغاة والمحتلين يتشابهون في كثير من الأمور، منها تجويع الشعب. المحتل يتبع منهج تجويع الشعوب المحتلة لنقل الثروات لأوطانه ولشعبه. (قنبري وآخرين، ٢٠٢١: ٥٣). الفقر هي المادة الأساسية والظاهرة الأصلية في مواد ونصوص الأدباء العراقيين الذين عالجوا فضاءات الاجتماع

العراقي وبيّنوا أنّ ثمانين بالمئة من أبناء الشعب كان يعاني ظاهرة الفقر، سيّما سنان أنطون يظهر لنا بطل رواية "يا مريم" يحتاج إلى المساعدة ويطلب من أخته وإخوته الذين يسكنون خارج العراق.

٣-٣. دمار البيئة والتراث في رواية "يا مريم"

تسببت الحروب والنزاعات المسلحة في العراق على مدى أربعين سنة بملايين الوفيات والإصابات وقساوتها لم تترك ندوبها على قلوب الأبرياء فحسب، وإتّما طاولت الأرض والماء والهواء، والتراث وكانت المزارع والغابات فريسة سهلة لنيران الصراع؛ فأتلقت الحروب الثروات الطبيعية والثروات التراثية والوطنية، وألحقت الضرر بالبنى التحتية الأساسية وأضعفت الإدارة البيئية والرقابة على المنشآت والفعاليات الصناعية. فحينما نتكلّم عن الديستوبيا يجب أن نحرص على بيان مدى الدمار الشامل الذي لحق بالبيئة، والشوارع، والبنائيات، وكل شيء يختصّ بالمكان، فهذا العراق أصبح ضحية وتُلقّت شوارعه، وأسواقه، والخراب طال البنائيات وأصبحت الأنهار تفقد المياه وتحوّل لون مائها إلى لون داكن لهذا رسم لنا سنان أنطون من خلال رواية "يا مريم" الإطار الديستوبي:

الديستوبيا	اليوتوبيا
بيئة ملوثة	بيئة نظيفة
هدم التراث	حفظ التراث
هدم النخيل وحرق المزارع	وجود زراعة ونخيلات

يرى سنان أنطون أنّ الحروب تدمر كل شيء، البيئة، والتراث، والإنسان، فيقول: «انتقلوا إلى بكفيا ليعيشوا بالقرب من أهل زوجته، بعد أن دُمّر بيتهم أثناء الحرب الأهلية» (أنطون،

٢٠١٢م: ١٨).

فكانت مسألة التهجير مسألة أساسية بين الطوائف والأقليات وتزيد على هذه الأمور الحروب والانفجارات. ويرى الروائي أنّ العراق يحترق بأكمله، من المساجد والكنائس والبيوت حتّى النخيل، فيروي لنا:

«عيني قيعدمونا بكل مكان بلا محكمة وماحدّ يحكي. الكنائس قتنحرق والناس قستهجر وقيدبحون بينا يمينة يسرة... {يوسف}: مو بس كنايس قتنحرق بنتي. الجوامع اللي انحرقت أكثر بكثير والاسلام اللي انقتلوا عشرات الآلاف» (المصدر نفسه: ٢٤).

نرى تعبير الروائي للفوضى يستخدم اللغة المحكية للتعبير عن هذا التشرذم. مها تعتقد بأنّ الحرب أدّى إلى حرق الكنائس المسيحية وقتل المسيحيين ويوسف يرى من الظلم أن لا نرى الجهة المخالفة ودمار المساجد وقتل المسلمين، فليس دمار الكنائس وحده، بل دمار المساجد أيضاً. وقصف الاحتلال بصورة خاطئة ودمار البيئة هي أهم الأسباب لدمار العراق:

«لم تكن ضربات الأمريكان جراحية كما كانوا يدعون في الأخبار، بل كانت، كما ظلت حتّة تردد عامي شامي. فأخطأوا في قصف بناية بريد العلوية القريبة منّا ثلاث مرّات ودمروا عمارات بالقرب منها قبل أن يصيبوها» (نفس المصدر: ٢٩).

فكان قذف أمريكي عشوائي سبباً لدمار البيئة والأبنية. ثمّ يروي يوسف أحداث بعد القصف:

«وفي اليوم الذي تلا ضرب بريد العلوية، قرّرت أن أمشي لأشاهد بنفسي ما حدث. وعند اقترابي من الفروع القريبة من البناية شاهدت مئات الأوراق مبعثرة على الأرض وبعضها معلق بسعف النخيل. وعندما وقفت لأقرأ ما عليها تبين بأنها كانت فواتير هاتف وأوراق من معاملات رسمية مبعثرة في كل مكان» (المصدر نفسه: ٣٠).

القذف أحرق الضبائر والمستندات ودمّرت الأبنية والبني التحتية للعراق وهذا أمرٌ لا يحقّ للطرف المتصارع في الحروب؛ لأنّ الحروب لها قوانينها. ثمّ يهتمّ الروائي في مسألة البيئة اهتماماً بالغاً، ويأتي للقارئ بتاريخ النخلة وأسباب أهميتها في تاريخ العراق فيتأمّل سنان أنطون ويتساءل

لماذا حلّت بهذا البلاد الفوضى ودمّروا كل شيء والنخلة، والأبنية، والكنائس، والمساجد، وهو يرى أنّ النخلة كانت رمزاً إلى النصر والبركة فكان الملوك يحملون سعفاً بيدهم للدلالة على ذلك.

٣-٤. الطائفية والعنصرية تجاه المسيحيين في رواية "يا مريم"

الطائفية هي الانتماء إلى العرق أو إلى مجموعة أو إلى توجه سياسي بشكلٍ قومي. هناك أيضاً الطائفية العالمية التي هي نوعٌ من العنصرية (اللون الأبيض؛ سيد الألوان). الطائفية في العراق في عهد حكومة البعث كانت موجودة بشكل الإنتماء العشائري فقط، للتركيز على الاسم والنسب ولم تكن هناك طائفية بمعنى التسلّط أو التدخّل في الأمور الحكومية أو القضائية؛ كانت الطائفية حينذاك تنحدّر إلى المجرى السياسي والحزب البعث الواحد، فكان الإنتماء إلى الحزب، يقلّل من تأثير الطائفية في الأمور الاجتماعية، حيث كان الوزير أو أي شخصٍ حائزٍ على منصبٍ حكومي لا يعرفُ إنتماءه الديني ولا العشائري وكان فقط يتباهى بانتماءه إلى الحزب والعروبه. بعد زوال الحكومة البعثية ودخول الأمريكان في العراق بدأ الانتماء العرقي والعشائري يأخذ حيزاً واسعاً في السياسة، حيثُ باسم الديمقراطية تشكّلت أحزاب سياسية لتولي الأمور في المجلس، حيثُ شهدنا الأكراد والأترك والإيزدية كلٌّ على حدة يخوضون المجال السياسي رغم قلّة عددهم في المجتمع العراقي. وفي الجنوب والمركز بدأ التنزاع السياسي الطائفي في شكلٍ آخر وهو النزاع المذهبي (الشيعة والسنة) حتّى وصل الأمر إلى ظهور الصراع العقائدي وأيضاً الصراع المسلح ولا بدّ أن نذكر بأن ظهور ما يسمّى بالدولة الإسلامية (داعش) كان يهدفُ إلى زعزعة النظام وترويج الاختلاف بين المذاهب بإطروحة الفكر السياسي (الدولة الإسلامية). وتاريخياً «كانت الخلافات حول القضايا السياسية واللاهوتية والعقائدية هي السبب في الانقسام بين السنة والشيعة، بيد أن التنافس على السلطة والموارد والمكانة هو الدافع وراء مظاهرها وتجلياتها الحديثة. وشيئاً فشيئاً، هيمنت فكرة التمثيل الطائفي على العلاقات السياسية بدلاً من تمثيل المواطنين، الأمر الذي أدّى إلى تفاقم الانقسامات القائمة بدل تخفيفها» (حسن، ٢٠١٤م: ٩).

1 . tribalism

تمظهرات الديستوبيا في الرواية العراقية الحديثة (رواية "يا مريم" للروائي سنان أنطون أنموذجاً) العدد الـ ٦١، شتاء ١٤٠٠

الطائفية العامل الأساسي في خلق فضاءات ديستوبية في العراق الحديث، ومعظم الأدباء ضحايا انتماءاتهم الضيقة وهوياتهم الفرعية التي فشلت الهوية الوطنية في صهرها، يرى أنطون أنّ الطائفية أدت إلى التفرقة والانفلات. ولأجل إعدام طارق عزيز يشتدّ الحوار بين مها ويوسف فتقول له:

«سألني مها بنبرة حادة بعض الشيء: يعني مو قيعدمونه لأنه مسيحي؟ فقلت: عيني الموضوع أعقد من مسيحي ومسلم. موضوع سياسة ومصالح، مو دين.» (أنطون، ٢٠١٢م: ٢٣).

يرى يوسف أنّ الأحداث ليست دينية فحسب، بل أكثرها سياسية، ولكنّ مها ترى الدين هو أساس كل شيء والتبعيض يحصل من اختلاف المذاهب والأديان. ثمّ بعد ما تدخل الفاتيكان وكان يحاول التدخل والتوسط للإفراج عنه، تمزّ رأسها مها وتقول:

«مو همّه نفسهم جماعة حزب الدعوة هجمو علينا بالقنابل اليدوية بالمستصرية بالتسعة وسبعين يريدون يقتلونو لأنه مسيحي؟ مو همّه إرهابيين؟ أشو منو المجرم اللي لازم ينعدم؟ همّه لو هو؟ همّه آخر زمان الإرهابيين يجون يحاكمون ويحدّ مئقّف؟ هاي دولة القانون؟» (المصدر نفسه: ٢٤).

مها ترى أنّ الإرهاب يتجلّى بالآخر المسلم، لأنّ الآخر المسلم هو الذي سبّب زعزعة بالكثير من الأمور، لهذا لم تقنع من تبريرات يوسف حيث يرى أنّ هذه أحداث سياسية لا صلة لها بالدين. إذن مها تبحث عن كلّ الأمور بالطائفية، وترى المسيحي في العراق لاقيمة له ودمه مباح وتقول بإعتراض:

«لو كان من جماعتهم ما كان عدّمونو، بس طبعاً، لأنه مسيحي دمه رخيص^١» (المصدر نفسه: ٢٤).

كثير من الباحثين في الشؤون الطائفية يعتقدون بأنّ ليس الطائفة المسيحية وحدها تعاني من هذا العنف وقد «شكّل التنافس بين الأغلبية الشيعية وبين الأقلية السنية في العراق محور الصراع السياسي في الدولة منذ سقوط صدام حسين آنذاك في العام ٢٠٠٣م. فقد أعاققت التوترات

^١. لو كان من المسلمين لم يعدمونه، ولكنه مسيحي ودمه رخيص.

الطائفية عمليات بنائ الدولة وزعزعت استقرار البلاد» (حارث، ٢٠١٤: ٩). وبما أنّ يردّ عليها يوسف أنّ هذه القضايا في تاريخ بعد الجباية والطغاة أمراً طبيعياً، ألا أنّها لا ترى هذا الأمر إلا من مسألة حقد وطائفية:

«عيني قيّدمونا بكل مكان بلا محكمة وماحدّ يحكي. الكنائس قتنحرق والناس قنتهجرّ وقيذبون بينا يمنة يسره.. ليش بس هوني؟ حتّيني بمصر. وبمصر أكو دولة قوية. وأشو هم قيذبون المسيحيين ويحرقون كنايسهم. راح يظّلون ورائنا. يريدون يطلعونا مثل ما طلعو اليهود. منو طلعهم؟ ليش راحو؟» (أنطون، ٢٠١٢: ٢٤).

ثمّ ترى أنّ الطائفية في الدول العربية دائمةً ويمتدّ ويجذر كالسرطان. الطائفية في زمن البعث جعلت اليهود والنصارى تفرّ من العراق، وما تبقى منهم إلا القليل، والآن في الرواية يعيش العراق في عصر انخيار، فتظنّ أنّ وجود المسيح في العراق أمراً في غاية الخطورة، ويجب أن يقرّوا من العراق، لأنّ الطائفية ستستبب باغتيال الأقليات. ويرى زوج مها أنّ ما تقوله زوجته صواب، لأنّ باقي الطوائف كما يروي حالها:

«خرج زوجها عن صمته، الذي لم يكن حيادياً البتّة، قائلاً: بس مو بس إحنا عمو. الضبّة هم خطية واليزيديين بالشمال. شوف شصار بيهم. الإسلام ما قيخلون أحد هذا كلّه بالماضي. إحنا مشكلتنا هسه. بالوقت الحاضر. الإسلام ميريدونا بكل بساطة؛ علمود يظل البلد بس إلهم.. يمكن كان بلدنا قبل، عمو، أيام زمان، كان.... بالماضي. هسه خلص. هسه صرنا كلنا كفّار وذميين^١» (المصدر نفسه: ٢٥-٢٦).

يذكر زوج مها باقي الطوائف والمذاهب كالصابئة واليزيديين الذين تضرّروا من الطائفية بقدر ما تضرّر المسيحيين. وترى أنّ الإسلام والجماعات الإسلامية المتطرّفة في العراق يريدون خروج المسيحيين. تظنّ أنّ الطائفية عند المسلمين جعلتهم يتضايقون من حضور المسيحيين، وفي جدالها مع يوسف ترى أنّ هنالك من يسمّي المسيح كفّار ويقصد بالجماعات المتطرّفة سيما داعش. ثمّ يشرح سنان أنطون أنّ أبناء المسيح هم أهلاً للسلام، والحب والوفاء للعراق:

«كانوا يجلسون معاً داخل الصف وكانوا دائماً مع بعض في الساحة، حتّى أن الفاذر سمّاهم pack of wolves قطع ذئاب، لكن يوسف قال له: كلا يا أبونا، نحن سرب طيور مسالمة» (المصدر نفسه: ٤٣).

^١ . فاليعدمونا، من غير محاكم في كل مكان، الكنائس تحترق والناس تهاجر وتظنّ هنا في العراق وحده؟ حتى في مصر وبما أنّ هناك دولة، يذبحون ويحرقون كنائسنا.

^٢ . هذا الماضي تتحدث عنه. مصيبتنا الآن. الحال، لا يريدوننا، يريدون البلاد يبقى لهم.

فأبناء الطائفة المسيحية في العراق يبحثون عن مصدر أمان بعيدين عن الأمور الطائفية والحروب والمعاناة. سنان أنطون قد عالج القضايا المرتبطة بالطائفية. فعالج المسئلة الشيعية في رواية وحدها شجرة الرمان من خلال "جواد" بطل الرواية ومسألة أبناء العامة في رواية "الفهرس" والمسيحيين في رواية "يا مريم" و"إعجام" فمسألة الطائفية من أهم المسائل التي عالجها سنان أنطون في رواياته.

٣-٥. الموت في الحروب والانفجارات

الموت لغة: الميم والواو والتاء أصل صحيح يدل على ذهاب القوة من الشيء، منه الموت خلاف الحياة، أمّا ما جاء في لسان العرب ف«الموت خلق من خلق الله تعالى غيره الموت والموتان ضد الحياة والموات بالضم الموت مات بموت موتاً» (ابن منظور، ١٩٩٨: ٩٠/٢-٩٤). وارتبط الموت بالخرن والخوف ونهاية البشر كما قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَ لَا يَكَادُ يُسِغُهُ وَ يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَ مَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَ مِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ (إبراهيم/١٧). فعلى الرغم من اكتشاف حتمية الموت فإنه يؤدي إلى صدمة عميقة، فكيف إذا كان الموت غير اعتيادي، وبصورة ديستوبية؛ فأحدي القضايا التي يتطرق إليها سنان أنطون من خلال الديستوبيا هي قضية الموت، يرى الأديب الموت في مجتمعه وغير اعتيادي وبصورة ديستوبية:

اليوتوبيا	الديستوبيا
موت اعتيادي	موت غير اعتيادي

بطل رواية "يا مريم" هو مسيحي وعندما ماتت أخته «حنّة» تذكر أخيه جميل: «نظرتُ إلى صورة العذراء المعلقة فوقه. إلى اليسار منها كانت هناك صورة لأخي، جميل، الذي هرب من العراق عام ١٩٦٩م بعد أن أعدموا صديقه بتهمة الماسونية وخافت زوجته اللبنانية من أن يلاقي هو نفس المصير بالرغم من أنه لم يكن ماسونياً» (أنطون، ٢٠١٢: ١٨).

فكانت الإعدامات أثناء حكم حزب البعث للمخالفين والمنتقدين للحزب لا ترى رحمةً. وتاريخ العراق من وجهة نظر الروائي مليءٌ بالمذابح والإعدامات والمقابر الجماعية:

«كان الحكم بالإعدام على طارق عزيز وآخرين قد صدر قبل خمسة أيام لدوره في التصفيات والإعدامات والتهجير. دارت جدالات حادة وصاخبة على الفضائيات وصفحات الجرائد حول الهدف من الحكم، خصوصاً وأنه كان مريضاً ومسنناً ونفي أن تكون له أي علاقة بالمذابح التي اقترفها رفاهه ضد الأكراد والشيعة، لأنه كان، كما قال، دبلوماسياً ومسؤولاً عن العلاقات الخارجية وحسب» (المصدر نفسه: ٢٣).

تكررت لفظة "الإعدامات" في روايات سنان أنطون تكراراً ملحوظاً، لأنه سعى أن ينقل الواقع المعاش. ثم يصف الروائي أحداث الموت في شتى أنواعه، من الإعدام، والتهديد، والمفخخات حتى الموت الطبيعي وهو موت أخت البطل التي كانت تسمى "حنة"، ففي تهديد القادة للصحفيين يروي لنا سنان أنطون:

«تذكرت العنهجية التي كان طارق عزيز يتحدث بها في الماضي عندما كان يظهر في المؤتمرات الصحفية ودخان السيجار الكوبي الذي كان ينفثه تشبهاً بسيد القائد. وتذكرت كيف أنه هدّد أحد الصحفيين البريطانيين ذات مرة بالقتل» (المصدر نفسه: ٢٤).

كان التهديد من قبل أعضاء البعث بمثابة الموت، لهذا ركز الروائي على هذا الجانب. ثم بطل الرواية يحاول أن يكون فكرة لـ «مها» وأن يرشدها الصواب، وأن القومية والوطنية أولى من الطائفية، ولكن تربي الجماعات المتطرفة من الإسلام في العراق لا تعرف إلا القتل:

«أي يروحون يقتلون بعضهم بعض، ويخلّوننا بحالنا، إحنا شعلينا؟» (المصدر نفسه: ٢٥).

إعدامات، ومفخخات، واغتيالات، والموت بسبب الأمراض التي حصلت بسبب الحصار على العراق، كلّها ظواهر لموت غير اعتيادي حيث عاجلها سنان أنطون في رواياته، فالموت من أهم الظواهر التي برزت في روايات سنان أنطون. ووفق تقرير أممي نقرأ «ان العنف الجاري والذي طال أمده في العراق لا يزال يلحق خسائر في المدنيين والبنية التحتية المدنية وتعريضهم لخسائر تعسفية في الأرواح والإصابة» (تقرير حقوق الانسان في العراق، ٢٠١٠م: ٢). إذن الموت في العراق لم ينته بانتهاك حزب البعث ويحتاج العراق لسنوات لكي يستقر ويعم الأمن والأمان.

٣-٦. سلطة الاحتلال في رواية يا مريم

تعرّض العراق على مدى التاريخ إلى غزوات كثيرة وشهد أبادات جماعية في حق شعبه وسيطرت القوات الأجنبية لسنوات حتى يعيد الحكم لأبناء العراق إمّا جبراً وإمّا طوعاً، وعلى قائمة تلك الغزوات؛ غزوة المغول (١٢٥٨م)، والأتراك العثمانيين والمماليك (١٧٧٥م-١٨٣١م)، والسيطرة البريطانية ١٩٨١م، حتى السلطة الأمريكية ٢٠٠٣م-٢٠٠٤م، وكانت بلاد الرافدين محط اهتمام وأنظار للدول الكبرى ويعود هذا الإهتمام إلى حقيقة الثروة النفطية الهائلة التي يملكها العراق مقابل تصاعد أزمة الطاقة التي يشهدها العالم.

يرى بطل الرواية بعد السقوط، قوات الاحتلال تركت الأمور بحالها وانشغلت في نهب ثروات العراق فيقول:

«مو قصّة علينا لو ما علينا، بس دولة ماكو والأقليات ماخذ يحميها غير الدولة القوية. إحنا لا عدنا حزب ولا مليشيا ولا بطيخ» (أنطون، ٢٠١٢: ٢٥).

ويظهر لنا من خلال كلام بطل الرواية أنّ تداير سلطات الاحتلال كانت منذ القدم لتحكم العراق لأسباب أمنية وإستراتيجية وثروات طبيعية:

«باب موضوع اليهود غير شكل. موضوع معقد. دخلت بينو إسرائيل عالحط وحكومة العهد البائد كانت متآمرة وصار إسقاط جنسية وقصّة طويلة عريضة» (المصدر نفسه: ٢٥).

فالروائي حاول أن يعترض سلطات الاحتلال على عدم جلبهم الأمنية للبلاد، ونهب الثروات الطبيعية والتراثية، وحاول أن يصف نواياهم القذرة من خلال نصوصه.

٣-٧. كثرة الحروب وتأثيرها على الشعب العراقي

عودة البعث وسلطته على العراق جلب الحروب الكثيرة للشعب العراقي «جاء انقلاب تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٤ الذي أزاح سلطة البعث، لكن البعث عاد بانقلاب مضاد في ١٧ تموز/ يوليو ١٩٦٨ ليطور سلطة ديكتاتورية تصنعت الانفتاح على مختلف القوى السياسية، فتحالفت

معها واحدة بعد أخرى لتصفّيها وتنفرد بسلطة تركزت بشخص الديكتاتور صدام حسين، الذي استولى على رئاسة الجمهورية بحفلة تصفية دموية داخل حزبه عام ١٩٧٩. وراح يعدّ العدة لحربه الطويلة على إيران (١٩٨٠ - ١٩٨٨)، ثم احتل الكويت عام ١٩٩٠ فأدخل العراق في حرب غير متكافئة عام ١٩٩١ انتهت بحصار اقتصادي طويل نُخر في بنية المجتمع العراقي وحزبه من الداخل تخريباً مضافاً إلى تخريبه بالقمع» (إبراهيم، ٢٠١٢: ٢). يرى أنطون أنّ الحروب كانت وما زالت المصيبة الأكبر على الشعب العراقي ويتذكّر بطل الرواية سنوات الماضية وكيف كانت مها تبكي في أيام غزو امريكا للعراق في سنة ١٩٩١ الميلادية:

«كانت الطائرات الأمريكية تدك بغداد ليلتها في قصف شديد يهزّ الأرض.. كنت أقف وبيدي المذيع الصغير الذي كان دائماً معي لأتابع الأخبار، مع أنها لم تكن قد تغيّرت في اليومين الأخيرين غارات جوية لقوات التحالف» (أنطون، ٢٠١٢: ٢٨).

يروى لنا سنان الغزو الأمريكي حصيلة احتلال حزب البعث للكويت، فستنجد الكويتيون بالأمريكان، وقد غرزة العراق من كل حدبٍ وصوب، وراحت ضحايا كثيرة من الشعب والجيش، و«إنّ سلطة الحاكم داخل العمل الديستوي سلطة طاغية مؤثرة في الأحداث بشكل كبير رغم أنّها قد تكون ذات حضور جزئي كما في يوتوبيا» (بخدي، ٢٠٢٠: ٤٨). ثمّ يرى الروائي أنّ قوات التحالف هي التي تقتل الشعب، وتخطئ في قصف الأمكنة النظامية:

«لم تكن ضربات الأمريكان جراحية كما كانوا يدعون في الأخبار، بل كانت، كما ظلت حتّة تردد عامي شامي. فأخطأوا في قصف بناية بريد العلوية القريبة منّا ثلاث مرّات ودمروا عمارات بالقرب منها قبل أن يصيها» (أنطون، ٢٠١٢: ٢٩).

كان يتعمّد الجيش الأمريكي في قتل الشعب العراقي، وكان يقذف بشكلٍ عشوائي، هذا ما ينقله سنان أنطون من خلال رواية يا مريم، ويصف لنا الروائي توقيت القصف:

«كان القصف في الأيام الأولى كثيفاً وعلى مدار الساعة ثمّ استقرّ على برنامج يبدأ في المساء حفلة الأمريكان كما سمته حتّة ويستمر إلى ساعات الصباح الأولى. وكانت حتّة تردد نفس السؤال كل صباح هاي سكان البيحة بالليل؟ دُم ودُم ودُم. ما يكفي؟ ما شبعو؟» (المصدر نفسه: ٣١).

سنان أنطون في جميع رواياته يعالج القضايا المرتبطة بالحروب، منذ حرب البعث على الشعب الإيراني واحتلال الكويت، حتّى حربه مع أمريكا وحصار العراق الذي كان طويل الأمد، ثمّ غزو العراق وسقوط بغداد بيد التحالف، فالروائي يسعى إلى تصوير الشعب تحت الحصار والقصف،

لكي يعبر عن الخوف والهلع الذي مرّ به الشعب العراقي. ويصف سنان كل الأجواء التي تختصّ بالحرب سيما:

«بعد وقف إطلاق النار الذي أنهى الحرب تغيرت كل المفردات والشعارات من عودة الفرع إلى الأصل، وأم المعارك إلى أحداث الثاني من الكويت، والعدوان الثلاثيني. وعندما بدأت الانتفاضة في الجنوب والشمال لاحظت اختفاء سيارة المخابرات ذات الزجاج المظل التي كانت تقف في ساحة الواثق القريبة من بيتنا عندما ذهبت لشراء بعض الحاجيات» (نفس المصدر: ٣٢).

فالحرب هي المادّة الأساسيّة والأشدّ قسوةً في المجتمع العراقي حيث أدّت إلى جميع الإنهيارات والدمار الذي حلّ بهذا الشعب.

٤. النتائج

لا شكّ بأنّ الرواية لدى سنان أنطون قائمة على التماثل والانعكاس المباشر للمجتمع العراقي وانعكس الواقع العراقي على نص الرواية حتّى بات الروائي يؤرّخ للمتلقي أحداث واقعية جرت في عصره، لهذا فقد وجدنا رواية "يا مريم" أنموذجاً كاملاً من المجتمع العراقي قبل وأثناء سقوط حزب البعث حتّى بان لنا ملامح الديستوبيا في الرواية بصورة مكشوفة، إذن وجدنا الركن الأساسي في الرواية كثرة الحروب، وظهور الفئات المتطرفة لكي تجلب الموت والاعدامات والانفجارات، ممّا سبّب في اتلاف البيئة ودمار التراث البشري، والثّني التحتية والبيوت والجسور والشوارع.

سلطة الاحتلال والأمور الطائفية التي روّجها الغازي الأمريكي جلبت الولايات في المجتمع العراقي وحاول الروائي في شتّى رواياته ينقل للقاريء الأحداث التي مرّ بها الشعب العراقي من فقر، ومعاناة، وعدم أمان حتّى تصبح صورة شفافة من حضور المحتل والدمار التي شهدتها الشعوب المحتلة. فرواية "يا مريم" هي الرواية التي عالجت قضايا مرتبطة بمعاناة المسيحيين والأمور التي تمرّ على عائلة مسيحية، من ظلم، واضطهاد، ومن ثمّ ضحية الهمجية المتطرفة من أحزاب معادية للشعب العراقي.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- إبراهيم، سلام، (٢٠١٢م)، الرواية العراقية: رصد الخراب العراقيّ في أزمان الدكتاتورية والحروب والاحتلال وسلطة الطوائف، ط١، بغداد: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
- ابن منظور، جمال الدين الأفرقي، (١٩٩٨م)، لسان العرب، ج١ بيروت: دار صادر.
- أنطون، سنان، (٢٠١٢م)، يا مريم، بغداد: دار الجمل.
- براندر، ب.ج، (٢٠١٦م)، رؤية الفوضى: استطلاعات عن انحسار الحضارة الغربية، ط١، ترجم: محمد هاشم أحمد، القاهرة: المركز القومي للترجمة.
- برجگانی، فاطمه، (٢٠١٨م)، «الديستوبيا (المدينة الفاسدة) في الرواية العربية المعاصرة؛ قراءة في رواية أورويل في الضاحية الجنوبية، لنوزي ذبيان»، إضاءات نقدية (فصلية محكمة)، السنة ٨، العدد ٢٩، صص ١٣١-١٤٩.
- جابر، صلاح كاظم، (٢٠١٣م)، «دينية القيم الطائفية ودورها في أسطرة العقيدة العراقية»، العراق: كلية الآداب/ جامعة القادسية، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، المجلد ١٦، العدد ٢/ صص ٤٧-٦٧.
- جاكوبي، راسل، (٢٠٠١م)، نهاية اليوتوبيا_السياسة والثقافة في زمن اللامبالاة_ ترجمه: فاروق عبدالقادر، الكويت: عالم المعرفة.
- جيجك، سلافوي، (٢٠١٣م)، سنة الأحلام الخطيرة، ترجمة أمير زكي، القاهرة: دار التنوير.
- حسن، حارث، (٢٠١٤م)، الأزمة الطائفية في العراق: إرث من الإفصاء، بيروت: مؤسسة كارنيغي للسلام الدولي.
- الحسني، أحمد عبدالرزاق، (٢٠١٥م)، «ثنائية اليوتوبيا_الديستوبيا) في الرواية العراقية - دراسة سيميائية، العراق: مجلة الآداب، صص ١٣٥-١٥٤.
- قنبري مزدي، مجتبي، فاطمه قادري، بختام فارسي، على اصغر روانشاد، (٢٠٢١)، «تأثير استعمار بر ساختار جامعه الجزائر در رمان غدأ يوم جديد» مجله علمي انجمن ايراني زبان وادبيات عربي، ش٥٧، صص ٤٥-٦٨.
- عسكري، عسكر، (٢٠١٠م)، نقد اجتماعي رمان معاصر فارسي، ط٢، تهران: نشر فروزان.
- ناظميان، هومن، (٢٠١٩م)، «الديستوبيا في الرواية العربية المعاصرة؛ قراءة في رواية يوتوبيا لأحمد خالد توفيق»، المؤتمر الدولي الثامن للغة العربية، ١١-١٣، صص ١٦٠-١٦٧.
- نجدي، عبدالستار، (٢٠٢٠م)، «تشكل الشخصية في الرواية الديستوبية»، المجلة العربية ومداد، المجلد الرابع، العدد ٩، أبريل.
- وادي، طه، (١٩٩٦م)، الرواية السياسية، ط١، مصر: دار النشر للجامعات المصرية.

بررسی ویران‌شهر در رمان معاصر عراق

(مطالعه موردی: رمان «یا مريم» اثر سنان أنتون)

نوع مقاله: پژوهشی

جاسم نگارش^١، صادق إبراهيمی کاوری^٢، سهاد جادری^٣

١. دانشجوی دکتری، گروه زبان و ادبیات عربی، واحد آبادان، دانشگاه آزاد اسلامی، آبادان، ایران.

٢. استادیار، گروه زبان و ادبیات عربی، واحد آبادان، دانشگاه آزاد اسلامی، آبادان، ایران.

٣. استادیار، گروه زبان و ادبیات عربی، واحد آبادان، دانشگاه آزاد اسلامی، آبادان، ایران.

چکیده

ديستوپيا (Dystopia) یا ویران‌شهر، تکامل یافته‌ی پس‌گذاری بشریت از فضیلت‌های اخلاقی و میل به سوی رذائل اخلاقی و گم‌گشتگی و فرو رفتن در تعصبات می‌باشد، و شهر و جامعه‌ای است که در آن بدی و پلیدی حاکم شده و نقطه مقابل یک اتوپیا یا جامعه آرمانی (آرمان‌شهر یا مدینه فاضله) است. این مفهوم ریشه در فلسفه دارد و زندگی در آن، به دلیل چیرگی معضلات و زشتی‌ها، دلخواه هیچ انسانی نیست. ترسیم یک جهان دیستوپایی و احتمال وقوع آن در آینده، معمولاً به منظور هشدار به مردم در مورد ادامه یا افزایش رذالت‌ها و معضلات اجتماعی صورت گرفته است. تلاش انسان اکثر مواقع به ساخت دیستوپیا منجر شده است. این اصطلاح با مسائل سیاسی، فلسفی و جامعه‌شناختی ارتباطی تام دارد که در دوره تجددگرایی اروپا بیشتر خود را نمایان ساخت، و حکومت‌ها برای تسلط بر ملت‌ها قوانین فرمانبردار خلق نمودند. در این بین مفهوم ویران‌شهری با جوامع عربی ارتباطی تنگاتنگ دارد و عراق را می‌توان قربانی این مفهوم دانست. هر آنچه در عراق معاصر روی می‌دهد همانند از بین رفتن مکارم اخلاقی، مردسالاری، فساد طبقه حاکم، و ترس از حال و آینده، همه جزئی از ویران‌شهری است. سنان أنتون از جمله نویسندگانی است که به ویران‌شهر توجه خاصی دارد و این در رمان‌های وی تجلی یافته است. این پژوهش به شیوه توصیفی-تحلیلی با هدف تبیین جنبه‌های ویران‌شهری در رمان یا مريم اثر سنان أنتون به نگارش در آمده است، و در نتیجه آن خواهیم دید که تعصبات مذهبی یکی از مهم‌ترین دلایل ظهور این ویران‌شهری است.

کلیدواژه‌ها: رمان عراقی، دیستوپیا، سنان أنتون، رمان یا مريم.

**The manifestations of dystopia in the modern Iraqi novel
(The novel "Ya Maryam" by the novelist Sinan Antoun as an example)**

Article Type: Research

Jasem Negaresh, Sadegh Ebrahimi Cavari*(Responsible writer), Sohad Jaderi

1. PhD student, Department of Arabic Language and Literature, Abadan Branch, Islamic Azad University, Abadan, Iran.
2. Assistant Professor, Department of Arabic Language and Literature, Abadan Branch, Islamic Azad University, Abadan, Iran.
3. Assistant Professor, Department of Arabic Language and Literature, Abadan Branch, Islamic Azad University, Abadan, Iran.

Abstract

The corrupt city or dystopia is a person's abandonment of the principles of morality, his loss and his disappearance into fanaticism and vices. The meanings of this city are associated with literature, politics and human philosophy. Its sun has risen and its features have become clear from the beginnings of the European Renaissance, when contemporary man controlled nature and invented social and political laws for power. There is no doubt that there are relations between these definitions and the Arab community in general and the Iraqi community in particular. The modern Iraqi novel is closely related to dystopian literature, the transformations taking place in the Iraqi reality, the disappearance of a system of values, the escalation of corruption, and the power of fear of the present and the future; Sinan Antoun is one of the Iraqi novelists who turned to this city in their novels, and it appeared in its comprehensive form. This research, according to the descriptive-analytical method, aims to reveal the features of dystopia and to clarify its implications and functions that were invoked in the novel "Ya Maryam" by the Iraqi novelist Sinan Antoun. On the unnatural death, especially in wars, executions, and assassinations, he also expressed the destruction of the environment and the Iraqi heritage, which were destroyed by war and its abundance.

Key words: the Iraqi novel, dystopia, Sinan Antoun, the novel